سبعه راكب

محمد عبد الله فؤاد

obeikan.com

obeikan.com

كان أشرف يجلس بجوار مقعد السائق قائلًا لنفسه: لم يبق سوى الراكب السابع ليجلس بجواري، ويكون العدد قد اكتمل لننطلق، وتبدأ الرحلة إلى القاهرة. بالرغم من إنني سأفتقد إلى هدوء الصعيد في سوهاج، إلا أنه قد أوحشني صخب القاهرة. اقترب من نافذته رجل تفوح منه رائحة عطر نفاذ، يرتدى ثيابًا أنيقةً، يمسك في إحدى يديه محمولًا غالى الثمن، وفى اليد الأخرى علبة سجائر مستوردة من النوع الفاخر، أطل برأسه وسأل عن السائق الذي أتى من خلفه مهرولًا:

- اؤمر سيدي.

مشيا سويًا بضع خطوات، ثم عاد السائق موجهًا كلامه إلى ركاب سيارته:

- السيد يريد أن يتخذ المقعدين المجاورين لمقعدي، والأمر متروك لكم إن لم تكونوا متعجلين ننتظر، وإلا فليغادر أحدكم.

أثناء قوله العبارة الأخيرة، كان ينظر إلى أشرف، الذي شعر على الفور أنه المقصود بتلك العبارة، لكنه آثر أن يلزم الصمت، قائلًا لنفسه: ولم أترجل أنا؟ أنا قد أتيت قبله، ولم هذه الغطرسة؟ فليأت ويجلس بجواري، وإلا فليركب هو سيارة أخرى.

أتاه صوت أحد الركاب من خلفه: لولا أن معي زوجتي لترجلنا على

الفور، لابد للمرء منا أن يشعر بالأخرين.

قال راكب أخر تبدو عليه علامات التقدم في السن: إنني مريض ويجب أن ألحق بعيادة الطبيب وإلا ضاع الحجز، واضطررت للانتظار شهر أخر، فلقد حجزت بصعوبة بالغة، وبالواسطة عند هذا الطبيب، لم هذه العطلة يا ربى؟

كانت تصطك هذه الكلمات بأذن أشرف؛ فيرتجف لها قلبه. إنها مؤامرة أذن بين السائق والركاب وهذا المتغطرس، ولما تيقن أنه شخص غير مرغوب فيه؛ ترجل من السيارة، ولم ينبس ببنت شفة، واكتفى بأن يغلق باب السيارة في عنف دون أن يلتفت وراءه.

اقترب من سيارة أخرى يقف بجوارها عدة سائقين متسائلًا عمن عليه الدور، فأشاروا إليه بسيارة خالية من الركاب فتح الباب، وجلس بالمقعد المجاور للسائق، ينظر ويراقب السائرين في الموقف، يترقب وصول أحد الركاب، ورأي امرأتان تقتربان إحداهما في ريعان الشباب، والأخرى تشبهها في الملامح لكنها أكبر سنًا، فاستنتج إنها أمها، وأتى السائق يفتح لهما الباب، واجلسهما في أخر مقعد ذاك المقعد الذى لا يتسع سوى لشخصين، فركبت عبير وأمها وقال أشرف لنفسه: تبدو هذه الفتاة مليحة، ربما لو كنا في القطار لكان ثمة فرص مواتية

للتحدث إليها، لكنه ذاك الحظ العاثر، الذى يلاحقني دومًا في كل خطوة من حياتي، حتى العمل لا يختارون إلا سواي لمثل هذه السفريات؛ لإنجاز المهام الشاقة، ولولا رؤية فتيات القاهرة بملابسهن الضيقة، وتنانيرهن القصيرة لما هانت مشقة الرحلات.

ما أن تلاقت عينا عبير بعيني أشرف حتى أشاحت ببصرها نحو النافذة، قائلةً لنفسها: إن هذا الشاب يبدو صيدًا سهلًا، فملابسه ذات الألوان الغريبة، ونظراته المرتبكة تلك، أعرفها جيدًا إنه من أولئك القرويين، التي تبهرهم أضواء المدينة دومًا، ما إن يجدوا من يلاطفهم من الفتيات، حتى يسبغوا عليهم الهدايا والعزائم، لولا إني لا رغبة لي في أحد، أريد أن أنهي هذه الرحلة والعودة بسلامة، كما إنني عاهدت كريم أنى سأقطع علاقتي بكل الشباب سأكون له وحده، لكن أتراه يصدقني القول ويفي بوعده؟ أن يكون هو لي أيضًا، أم إنني مجرد فتاة عابرة في حياته، خاصة أنه ثرى، وفى ريعان شبابه، ولا ينقصه الوسامة الازمة لجذب فتيات غيرى أجمل منى، لنجرب طالما إنه يمدني بالمال اللازم فلم لا؟

كانت أمها تنظر إليها في اشفاق، وامتنان فهي من طلبت منها أن تصحبها في رحلتها الشاقة للذهاب إلى ذلك المحامي الكبير، نصحها

المقربون إنه هو من سيجلب لها حقها، وإنه مختص بذاك النوع من قضايا الميراث، فانصاعت أخيرًا لنصحهم وزاد من حماستها للسفر شوقها لزيارة الأولياء، كم أنت طيبة يا عبير وتستحقين أفضل مما أنت فيه، إنها تعلم بكل ما تفعله ابنتها دون أن تتطرق للتفاصيل بالطبع، لم تكن راضية كل الرضا، لكنها كانت توصيها دائما وتستحلفها برحمة أبيها أن تحتفظ بعذريتها وألا تفرط فيها مهما بلغ بها الحال، وأن تتوخى دومًا الحذر، أخرجت منديلها ومسحت دمعة خانتها، وقفزت من مقلتيها، وانهالت سرًا بالدعاء على أخيها الذى استولى على ميراثها بحجة إنه لا إرث للإناث، واحتياجها لمن يساوى ومن لا يساوى شيئا.

- هنا؟ أتى صوت عمر متسائلًا، فأجابه السائق: نعم

فركب هو وصديقه سمير في المقعد الذي يقع في المنتصف، خلف أشرف، وأمام عبير، وما أن استقرا حتى قال لعمر هامسًا - ابتسم يا صديقي نحن على أول عتبات الثراء. فأجابه عمر في ابتسامة ساخرة: من يسمعك الآن لن يصدق أن أمك وأمي قد باعتا حليهما، وأننا بصدد تقديمه على طبق من فضة، لذلك الخنزير الجالس هناك في القاهرة؛ ليقدم لنا تأشيرات السفر إلى دبى، ثم استند بظهره إلى مقعده، واجتر ذكرياته، لم يستقر في عمل لقد أوشك أن يلامس

الثلاثين ولا تبدو في الأفق أية سحب تحمل أية أمل في الزواج و تكوين أسرة، أو مسكن لائق، أو ما شابه كحال كثيرٍ من الشباب هذه الأيام، ولا عمل يمكنه الالتحاق به؛ لأن لا واسطة لديه، وقد ترك هو وسمير العمل بالغردقة بعد فترة قصيرة؛ لأن أموال السياحة حرام، وحيث العرى والخمور - حيث لم يستطع عقله أن يستوعب عندما ذهب إلى المسجد ليصلى أن يكون الأمام هو (البارمان) أي الساقي ـ وملعون حاملها، وساقيها، فأثر الرحيل، وصحبه سمير عن طيب خاطر، فهما صديقان منذ الصغر، بالرغم من أن سمير كان مسيحيًا، أفاق من شروده على يد سمير تربت على ساقه: أين وصلت؟ لابد أنك تحلم بالعمرة والحج، فإن السفر للسعودية من دبي أيسر من السفر من سوهاج لأسيوط، أجابه عمر: وأنت؟ ألن تأتى معي لن أتركك، رجلي على رجلك، وضحك الأثنان، عندما فتح عنتر الباب بجوار أشرف، كان يرتدى جلبابًا بلديًا يمتاز به أهل الصعيد، همَّ أشرف أن يترجل، ليدخل الرجل، ليجلس بجوار السائق، لكن الرجل، أشار بيده أن يفسح؛ ليجلس هو بجوار النافذة، لأنه ينوى أن يدخن، أوشك أشرف على الاعتراض، لكن نظرات عنتر وشاربه الضخم قد جعلا أشرف يبتلع اعتراضه، وأن يفسح لعنتر وقد امتلأ بالغيظ، وظل يلعن في سره حظه

العاثر الذي لا يبدو أنه يريد أن يتركه في حاله.

شرد عنتر ببصره، ووضع يده على جيبه يتحسس نقوده، وقال لنفسه: أول ما سأفعله عندما تطأ أقدامي القاهرة، الذهاب إلى بائع المجوهرات، واشترى خاتمًا لفريدة، زوجته الجديدة فهو لم يستطع شراء الخاتم من سوهاج، خشية أن يراه أحد، أو يخبر الصائغ أحدًا، ويصل الخبر إلى زوجته، فتجعل عيشته مرارًا، وتخبر أهلها وعشيرتها وتقوم القيامة، إن زوجته سعاد أم أولاده طيبة ومخلصة، لكن فتيات القاهرة لهن بريق أخر خاصة على الفراش، إن فريدة تلبى له احتياجات أخرى لا يجدها عند سعاد.

عندئذ فتح السائق الباب بجوار عمر وسمير قائلا: تفضلي، فأطلت هدى في ارتباك، وقد بدا وجهها ممتقعًا من الخجل متسائلةً في اضطراب: هنا؟ نعم هيا على بركة الله، تركها السائق في ترددها، وركب وأدار محركه، فركبت بدورها على استحياء، وضمت ساقيها لتحافظ على مسافة بينها، وبين سمير الذى كان يجلس إلى جوارها، ويبدو إنها لم تكتف بذلك، فوضعت حقيبة يدها بينها وبينه كفاصل يفصل بينهما، وأخرجت مسبحتها، وشرعت تحرك شفتيها تتمتم بدعاء السفر، فكل فعل تفعله له دعاء، دعاء السفر، دعاء الاستيقاظ من

النوم، دعاء تناول الطعام، حتى الاستذكار له دعاء، هكذا كان يوصيها أبوها، الذى لم يعق تدينه، تحفظه أن يترك ابنته لتلتحق بالجامعة في القاهرة، وأن تروح وتجئ بمفردها.

بالأمس رأت حلما غريبًا، إنها كانت ذاهبة مع أبيها للتسوق؛ أرادت شراء حذاء، فأعجبها واحدًا ذو لون أحمر، فأخبرها أبوها أن تستبدله بحذاء أخر، فأبت، وأصر أبوها، فبكت ثم امتثلت لأمر أبيها، ولما استيقظت قصت على أبيها تلك الرؤيا، فابتسم، وطمأنها، وقال لها: استبشري خيرًا بإذن الله، طالما ارتضيتِ بالمقسوم، واطعت أباك فأبشري.

- الفاتحة نصل بسلامة الله، قال السائق.

فشرع الركاب في قراءة الفاتحة، واختلس عمر النظر إلى سمير، فوجده يتمتم بكلمات، فابتسم، وأخرج أشرف قرطاسًا يحوي اللُّب، وشرع في القزقزة، فنظر إليه السائق نظرةً؛ فهمها أشرف، فأخرج قرطاسًا آخر فارغًا، وقال للسائق: لا تقلق هذا للقشر، لم يكن أشرف يتم عبارته حتى رأى السائق، وقد اتسعت حدقتاه، وظل يردد: لا إله الا الله، لا إله الا الله.

هكذا فعل كثير من الركاب الذين قد أجفلهم المنظر الآتي خارج

النوافذ، وكان أشدهم ذهولا أشرف، الذي الجمته الصدمة، فظل فاهه مفتوحًا، وعيناه ترقبان ذاك المشهد، فقد كان على جانب من الطريق، تلك السيارة التي ترجل منها أشرف، ليركب ذلك المتغطرس، وقد انقلبت على أعقابها، واحترقت، وفارق كل ركابها الحياة.

تمت

obeikan.com